صـــــورتان للخير والشر

للأســـتاذ عبد المنعم خلاف

رجلان ...

أحدهما ملك كريم هبط إلى الأرض بروح السماء ، وسيصعد إلى السماء بمكرمات الأرض ...

وثانيهما روح خبيث صعد من الطين كأنه فقاعة من غاز عفن ! أو كأنه بثرة ذات قيح وصديد في وجه مجدور ... ، ثم عاد وسفل في الطين وأبى الارتفاع ، وسيكون مرجعه إلى عالمه ، عالم نجاسات الأرض ...

وقد رأيتهما في مكان واحد في وقت واحد ، فرأيت الضدين الأبديين الخالدين تصطرع روحهما على روحي ، فكانت محنة هي محنة العيش بين المتناقضين كمحنة الحديد يوقد عليه في النار ثم (يُطَسُّ) في ماء مثلوج ...

أولهما له وجه أصيل الحسن والسماحة عميق المعاني الإنسانية ، يأخذك إلى رحاب الوضوح التفاؤل والحب العميق للخير ، ويدعوك إلى تصديق ما أنت به دعوات السلام والحب والبر ، وله عينان كأنهما منبعا نور وصفاء يغسلك بأشعته ويطهرك وينير لك سبل الحياة .

والثاني له وجه عميق القبح ممسوخ المعاني ، رآه مرة أحد أرباب الصفاء والنفاذ فقال : إنه وجه غادر ... وله عينان كأنهما جُبَّان جفّ فيهما الماء وسكن الظلام وانطلقت الحشرات ، فهما يغمران قلبك بالظلام والوحشة ، ويأخذان فكرك وخيالك إلى أودية التشاؤم والكراهية للانسانية ، ويوحيان إليك أن كل ما تقرأ عن عالم الخير والسلام وهم واهمين وغفلة غافلين بلهاء ...

وللأول يد تفيض بالخير فيضاً ولا تحبسه عن أحد ، وتعطي الناس مستحقين وغير مستحقين ، وتمسح الجراح والآلام ، وترتق الفتوق وتسد الثغور وتسند الذي يريد أن ينهار وتشير دائماً إلى منطقة النجاة والسلام كأنها علامة إرشاد منصوبة على طريق الإنسانية ...

وللثاني يد كأنها ناب ذئبة جائعة ذات أجراء صغيرة ، فهي تختطف لنفسها ولأجرائها قلوب الناس وأكبادهم أو كأنها فم قبر مخروق يأخذ ولا يعطي إلا الثكل والفقد ...

الأول عظيم بالطبع ، عظيم بالوضع ، يتوجّهُ مجد الفعال العظيمة والمكرمات الخالدة ، ولكنه يتواضع حتى يحس محدثه ومجالسه أنه أمام رحمة مجسمة خلقت إنساناً ...

والثاني لا يحملك وجهه وعمله على إعطائه ما يليق بآدمي من احترام وانقناس ، وإنما تجفُل لمرآه أول ما تقع على عينك ظلاله وعلى وعيك أعماله ، ولا يحملك ما يحاول أن يحيط به من زينة الثياب والرياش والأثاث البراق إلا على مقارنة قبح ذاته وصفاته بجمال ما يحيط به من الأثاث الجامد !

***

هذا الأول أسدى لنفسي معاني كثيرة من الخير ، وما تملك نفسي إلا أن تسدي إليه الحب وتسجيل الذكر وتخليد الصورة في مثل هذه المناسبة ، لأنه مرتفع عن مستوى الحاجة ... وذاك الثاني أسدى لنفسي شراً كثيراً ، وأقل ما أسديت إليه أنني كنت التمس المعاذير لقبح خلقه وهوان شأنه على معاشريه ، وكنت أغضي عن ذلك رحمة له إذ لم يخلق نفسه ، وأنا أرحم القبيح ولكن لا أهواه كابن المعتز . ومع ذلك فقد كان حقه مني أعظم مما مع غيري ...

وتسأله لماذا يا فلان ؟ فيخرس لسانه ويجيب وجهه بتعليل الطبع السائر على نهجه ... ولقد أجاب لسانه مرة حين قلت له : إنني لا أطيق الشر فهلم معي إلى الخير ... فقال : لن تستطيع أن تغير ما في القلوب بالأقوال ...

فكانت هذه هي حكمته الوحيدة الخالدة ...

هذا النوع من الناس هو الذي قد يحملك على جحود الخير والإيمان بالشر ، إذ يحيل قلبك من هدوئه واطمئنانه إلى الثورة والتشكك واعتناق الشر وتحطيم المثل العليا ، أو أنه على الأقل يجعلك تعتقد أن الشر عريق في الوجود عراقة الخير ، كأنهما مخلوقان لإلهين مختلفين يحتربان ويصطرعان على تسيير دفة الدنيا ، يديرها أحدهما إلى الأبيض ويديرها الآخر إلى الأسود . فيجب أن تطيع الثاني كالأول ويتسع قلبك له وتطاوع شيطانك فيه